شعرية قصيدة الهايكو الجزائرية بين لطافة التّجريد وكثافة التّجسيد.

The poetry of the Algerian haiku poem between the gentleness of abstraction and the intensity of embodiment.)

عبدالقادر حمراني[1]*

[1] جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف الجزائر/ *a.hamrani@univ-chlef.dz*

تاريخ الاستلام: 2024/03/28 تاريخ القبول: 2024/04/27 تاريخ النشر: 2024/07/05

ملخص:

شهد عالم الشّعر في هذا العصر تحوّلات فكرية عميقة ذابت فيها القيود، وتوارت خلفها الحدود نتيجة التقارب السّريع الذي غذّته مواقع التواصل العصرية التي صيّرت الانفتاح على الغير أمرا ميسورا للغاية، بل ومطلوبا بعناية. وما تجربة الهايكو في الشعر الجزائري المعاصر إلاّ خير شاهد على تفاعل هذا المخاض الفكري القائم على الأخذ والعطاء الذي أثمر تجربة شعرية حَرِية بأن تقف عندها الأفهام، وتجلّي خصائصها الأقلام. ولعلّ من أجلّ ما يثير الاهتمام ويدفع إلى الرّغبة في استكناه تلك السّمات خاصية التجريد والتّجسيد التي يشتغل عليها هذا النّمط الشّعري في طبعه ونبعه. وهو ما نسعى إلى استجلاء خطوطه، وتوصيف خيوطه عبر هذه المداخلة باقتضاب يفرضه المقام.

الكلمات المفتاحية:- المخاض الفكري، الأخذ والعطاء، ثنائية التجريد والتّجسيد، التحوّلات الفكرية، المنازع الشعرية.

Abstract:

In this era, the world of poetry has witnessed profound intellectual transformations in which borders have dissolved as a result of the rapid rapprochement fueled by modern networking sites that have made openness to others very easy, and even required with care.

The experience of haiku in contemporary Algerian poetry is nothing but the best witness to this intellectual interaction based on give and take, which resulted in a poetic experience worthy of study and attention. What arouses interest and prompts the desire to capture these features is the characteristic of abstraction and embodiment on which this poetic style works. This is what we seek to clarify its lines and describe its threads through this intervention.

Keywords: *Intellectual labor, give and take, The duality of abstraction and embodiment, Poetic trends.*

المقال:

قد يتولّد السحر من الشّعر. وينبجس الافتتان من الحرمان. ويشعّ النور من الظّلام، ظلام الحيرة الفكرية المتردّية في غيابات جبّ النّفس التي تحرّكها أمواج الحياة المتلاطمة لتقذف حِمما من كلام شظاياه الرّمز والإشارة السّارية سريان الرّوح في جسد الإنسان المتبتّل في محراب الحيرة التي تُذكيها تصاريف الدّهر وخطوبه. وما تفرزه من تباريح الجوى الشّاكية الباكية العازفة على أوتار الذّكرى، وما يؤرّق العقل الذي لا يتوانى لحظة في الجموح عن عقاله، وتخطّي حدود أسواره ليكرع من بحار العالم الأسنى المتواري خلف الأين والغين. لقد كان لهذه الرّؤى الشّفافة الهامزة الرّامزة أثر بارز في إذكاء قرائح شعراء الهايكو الذين توسّلوا لهذه الأفكار بأساليب شتى من البيان الجامع بين التّجسيد والتجريد بطريقة رمزية موغلة في لطافة الفكرة الحاملة لأشتات المعنى وظلاله المضغوطة بحنكة واقتدار حيث تغدو القصيدة أشبه بزهرة تعادل حديقة كاملة. وما ذاك إلاّ لأنّ شعر الهايكو مهيّأ أساسا للاشتغال على التّركيز والإيجاز الذي يؤطّره التكثيف المعنوي الذي كلّما ارتفعت وتيرته في توظيف اللّغة ازداد انفتاح أفق الدّلالة اتّساعا وعمقا يعكسهما ذلك التشظّي الحاصل عند القراءة. فكلّما كانت القراءة واعية في التعامل مع معطيات اللّغة تفجّرت الدلالة وأخذت أبعادا تُغري بالمتلقي وتدفعه إلى مزيد من التأمّل والاستقراء والتأويل.

لقد وجد لفيف من الشّعراء الجزائريين المعاصرين ضالّتهم في انتحال هذه التجربة الشّعرية الوافدة لمّا ضاقت بهم سبل الأنماط الشّعرية المألوفة التي حاولوا التحرّر من قيودها، والإفلات من قبضتها سعيا منهم إلى استثمار ما في هذا الوافد الجديد من مزايا تتجاوب مع تطلّعاتهم التي تجد لنفسها مشربا في القصيدة / النّفَس التي

تختزل الزّمان والمكان في توقيعات قليلة المبنى، غزيرة المعنى. يجد فيها الشّاعر متنفّسا لأفكاره ومقيلا خصبا لخياله يبثّها شكواه، ويشركها بلواه.

إنّ ثراء اللّغة العربية وحيويتها بين الحقيقة والمجاز. وما تتمتّع به من مرونة وسلاسة في هندسة العبارة أهّلها للتّجاوب مع هذا النّمط الشّعري المتفاعل مع ملابسات الحياة، وما تفرزه من إحن ومحن، وما تطرحه من تساؤلات وجودية واغتراب داخل الأوطان التي عكّرت صفوها أنانية الإنسان، وزيف الحضارة المقَنَّعة التي فرضت على شاعر الهايكو التبرّم منها والارتماء في أحضان الطبيعة التي كانت مصدر إلهام له في نسج خيوط توقيعاته المتناغمة مع أحداث الزّمان وما يلفّها من ألوان قاتمة ظلّت تؤرّق الفكر، وتهيّج الوجدان.

إنّ فحص هذه التّجربة الشّعرية الوافدة علينا يجعلنا نقف على جملة من الملاحظات الخاصّة بالبناء الشّكلي النّاظم لقصية الهايكو في لغتها المفصحة عن بنية مغلقة قليلة الألفاظ غزيرة المعاني بفعل الانفتاح الدّلالي في بناها التركيبية. ولعلّ هذه السّمة هي سرّ شعريتها، ونبضها المعنوي الدّافق الذي يثير في المتلقّي انفعالا جماليا تستأنس به النّفس في تجلياتها المتطلّعة إلى فكّ شفرات الوجود، واستقراء رموزه.

يؤطّر شعر الهايكو وعي فنّي هادف، وإحساس مرهف بمواقع الكلمات تتواشج فيه خطرات النّفس وألغاز الوجود المثيرة لتساؤلات الحيرة المنبثقة عن مكنونات الذّات وما تذكيه مفارقات الحياة.

إنّ مقطع الهايكو في مبناه ومعناه يصرف الأنظار إلى التأمّل والحوار في صمت مع الطبيعة ومكوّناتها الهامسة اللاّمسة لذلك المشهد النّاطق في صمته الدّاعي إلى التأمّل في سفر هذا الكون العجيب الغريب المؤطّر للتجربة الشّعرية في غمرة الكشف والإثارة.

لقد حاول الشّعراء الجزائريون المعاصرون تطويع هذا الفنّ الشّعري لأقلامهم لمّا وجدوا فيه ضالّتهم التي تنزع إلى الانفتاح على الغير والانعتاق من ربقة المحلية المحاصرة لنوازع النّفس ومتطلّبات الفكر الذي يتخطّى أسوار الحدود وما تفرضه من قيود.

فالهايكو في طبعه ونبعه فكرة مجرّدة تبرز في قالب شعري قائم على الإيجاز الذي ضُغطت في حناياه رؤى فلسفية وفكرية ترشح من الفجوات المتناسلة من بنى لغوية ذات طاقة روحية تُستشفّ بالقراءة الواعية المتبصّرة المحقّقة لنشوة العقل عبر لذّة النّصّ. ولو تأمّلنا هذا النمط الشّعري ألفيناه اختزالا وتجميعا لعوالم عدّة زمانا ومكانا في رحم جمل قصيرة تكون قادرة على رسم لوحة شعرية مكثّفة الدلالة تستهوي المتلقي وتدفعه إلى التنقيب في أعطافها. فتراكيب الهايكو وإن كانت سهلة بسيطة في

ظاهرها فهي ذات بُعد دلالي عميق في باطنها. يلفّها الكثير من الغموض الذي يتعمّده الشاعر. وهو أمر محبّب يدفع العقل إلى مزيد من التركيز لاستجلاء الفكرة المتوارية خلف مقاصد النّص ودلالاته. إنّ " الهايكو نصّ مضغوط قد يبدو للوهلة الأولى في تحققه على الورق مجرّد بذرة حبر باهتة أو زخّة مطر شفيفة لكنّه سرعان ما يتدفّق بفعل القراءة المتأنية المتأمّلة عن كون شعري لا متناه من المشهدية."[1]

إنّ الحديث عن الإبداع هو بحاجة ماسة إلى إبداع في التعبير والتّصوير . تصوير يشي بأنّ هذه الحركة الدّؤوبة التي يقوم عليها الإبداع هي سرّ حياته وفاعليته. فهو كالماء الجاري كي يتجدّد ، فإن ساح طاب وإن لم يجْرِ لم يطب.

إنّ النصّ الشّعري عالم مفتوح لمّا تغدو الدّلالة الرّمزية فضاء لا متناهيا من المعاني التي يفرزها التّأويل. فهو غاية في الكثافة الدّلالية التي تجعله عصيا على الفهم إلاّ بعد الحفر في أعماقه، وتتبّع نسيج علاقاته الخفية المتوارية خلف نسيج النص الذي تطبعه الغرابة وإن كانت لغته بسيطة لأنّ التعبير عن الشّيء الغريب بلغة عادية مألوفة والكتابة عن المألوف بطريقة غريبة مثيرة للاهتمام أمر يبعث على التدبّر والإمعان. إنّ التعبير الأمثل هو من كانت له القدرة على توصيف مشهد بدقّة وعمق بأقلّ عدد ممكن من الكلمات، أو توظيف صوّر فنية موحية بعيدا عن الابتذال والإطناب وهذا ما هو فاشٍ في لغة شعر الهايكو التي تتجلّى في عيّنات منه نسعى إلى فكّ رموزها والتنبيه إلى دفائنها أملا منّا في الوقوف على مقاصدها.

يقول الأخضر بركة في ديوانه" حجر يسقط الآن في الماء":

مثل قطر النّدى
تنعكس فيها السّماء والأرض
يولد الهايكو[2]

الحضور الطبيعي ماثل في هذه القصيدة من ماء، وسماء، وأرض. فالهايكو أشبه ما يكون بقطرة النّدى التي وإن صغرت في حجمها فهي مؤهّلة لأن تنعكس عليها صورة السماء والأرض. وفي ذلك إشارة إلى أنّ قصيدة الهايكو وإن صغرت في مبناها فإنّها قادرة على أن تستوعب دلالات جمّة تعظُم في معناها. معان تولد من رحم ملابسات الحياة بعد مخاض عسير تتباعد فيه الأمكنة بعد السماء عن الأرض. ففي هذه القصيدة من التتشظّي الدلالي ما لا يحدّ بمقياس.

وفي قصيدة ما أشدّ الحرّ يقول:

ما أشدّ الحرّ !
شجرة تمنح ظلّها
صدقة لعابر سبيل.[3]

وظّف الشّاعر مفردات من قاموس الطبيعة(الحرّ، شجرة، ظلّ) ليتّخذ مها معبرا لفكرته التي استهلّها بأسلوب تعجّبي أعرب من خلاله عن شدّة الحرّ الذي أنهكه وصيّره في أمسّ الحاجة إلى من يجيره من تلك الرّمضاء التي تضاعف فيها عناؤه. وهو وإن كان قد افتقد العون من الإنسان فقد وجد ضالّته في تلك الشّجرة التي جسّدها مضفيا عليها صبغة إنسانية جعلتها تغمرها الرّحمة فتجود بظلّها لكلّ عابر سبيل من غير مقابل يُذكر. يحدث هذا في الجمادات ويغيب لدى شريحة كبرى من النّاس الذين غاب لديهم الإحساس بغيرهم، حيث طغت الأنانية بعدما قست القلوب فهي كالحجارة أو أشدّ. هذا الإنسان الذي تحنو عليه الشجرة يتنكّر لها مقابلا الإحسان بالإساءة فيقطعها أو يحرقها...الخ. وهذا أمر يدعو للعجب من هذا الإنسان الذي تجرّد من كلّ قيمة أخلاقية بخلاف الشّجرة التي تجسّدت فيها ملامح الأمّ الرؤوم. ولو تتبّعنا قصائد الشّاعر ألفيناها في الأغلب الأعمّ تغرف من صوّر الطبيعة التي وجد فيها ضالّته فراح ينهل من معينها لرسم لوحاته الفنية، وتجسيد رموزه الفكرية، نحو قوله:

الماء صافٍ
حصى القاع
لا يملك إلاّ أن يتلألأ.[4]

مفردات القصيدة مألوفة بسيطة للغاية إلاّ أنّها ذات مغزى عميق ينطوي على تكثيف دلالي، وتركيز معنوي. فالماء هو سرّ الحياة وقوامها. فإذا صفا نبعه وخلا من كلّ كدر أشرقت الحياة ببهجتها، وعمّ الخير. صفاء الماء رمز للإنسان سليم الصّدر الذي لا يحمل غِلاّ لأحد نقيّ السّريرة، صادق العشرة، ظاهره كباطنه لا يبدر منه إلاّ ما يسرّ النّاظرين، ويثلج صدورهم. ذلك هو حصى القاع المتلألئ على الدّوام بعد صفو مائه. إنّ قياس الشّبه بين الإنسان الخلوق وما يتحلّى به من صفات كريمة مناسب تماما لما يعكسه الماء الصّافي في طبعه ونبعه. فهو يجمع بين طهر وصفاء ونقاء باعث على الاطمئنان، وفيض من الإحسان الذي يغمر كلّ كائن من نبات وحيوان وإنسان.

تكاد سمة التوظيف من قاموس الطبيعة تلازم شاعر الهايكو في نسج تراكيبه ، ونحت أفكاره التي استقرأها من كتاب الطبيعة النّاطقة في صمتها. مثلما هو الحال في قوله:

يختطف الهواء
قطرة من موجة البحر
يرشقني بها.[5]

لاشكّ أنّ الهواء به قوام حياة الإنسان الذي لا يمكن له أن يحيا بعيدا عنه، أو من دونه. فالهواء هو الحياة بصفائها و كدرها. يكون نقيا تارة، وملوّثا تارة أخرى. شأنه

شأن الحياة التي تجمع بين الصفاء والكدر. فهي التي ترمي الإنسان برشقات سهامها المنبعثة من منغّصاتها التي هي أشبه ما تكون بموج البحر المتلاطم. فلا أحد بمنأى عن مكدّرات العيش وسهامه. ولمّا كان ناموس الحياة قائما على هذا التضادّ وجب الاستعداد لكلّ نازلة تحلّ بنا والتفاعل مع الحياة حلوها ومرّها. ولله درّ القائل:

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى *** ظمئت وأيّ النّاس تصفو مشاربه

ولمّا كانت سنّة الحياة قائمة على هذا النّسق وجب علينا تحدّي الصّعاب والتطلّع دوما إلى غد أفضل. تلك هي الرّسالة التي تحملها قصيدة " شجرة التين في الشّتاء" التي يقول فيها:

شجرة التين في الشّتاء
أمام دكّان الرّبيع المغلق
تحلم بفستان جديد.[6]

معالم الطبيعة التي نستوحي منها الدّروس حاضرة دوما في لغة الشاعر وبيانه (شجرة التين، الشتاء، الربيع) كلمات مألوفة فاشية في الاستعمال اليومي، لكنها في نظم الشاعر لها تأخذ أبعادا دلالية يطبعها كثير من التشظّي المعنوي المعبّر عن إرث تاريخي للمشهد الفلسطيني الذي توارت فيه سماء الحرية وسط شتاء مكفهرّ طال أمده. و ثقلت وطأته. لقد ظلّت شجرة التين عارية تغمرها القسوة التي جرّدتها من ثمارها وأوراقها. ولم يبق منها إلاّ تلك الأغصان التي ظلّت تصارع من أجل البقاء، وتقاوم في صمت متطلّعة إلى بزوغ فجر ربيع يعيد لها بهجتها ونضارتها، حالمة بعيد استقلال تتزيّن فيه بفستانها الجديد الذي لا يبرح خيالها وسط تلك الآلام المثخنة بالجراح على أنّ جرح القرابة أشدّ وأقسى. لقد وُصدت جميع الأبواب أمامها ولم يبق إلاّ باب التضحية والفداء إيمانا منها بأنّ للحرية الحمراء باب بكلّ يد مضرّجة يدقّ.

لقد تمكّن الشّاعر من تجسيد رؤيته القاضية بحتمية التحرّر من ربقة الاحتلال حتّى وإن كان واقع الحال تلفّه التّعاسة والشّقاء من كلّ جانب، ذلك أنّ سنّة الحياة اقتضت أنّ الشتاء مهما طال أمده فإنّ الرّبيع سيعقبه لا محالة. وفي هذه السُّنة الكونية عزاء للشّعب الفلسطيني الأعزل إذ لا أنيس يسمع الشّكوى و لا نصير يخفّف البلوى، لكنّ شُعلة الأمل بتحقيق النّصر وإن غلا مهره لا تنطفئ في نفوس الأحرار. من خلال هذا التمثيل المستوحى من الطبيعة جسّد الشاعر فكرته لينفخ في روح المقاومة، ويجعل ذلك الشّعب الأعزل مؤمنا أشدّ الإيمان بغد أفضل حتّى وإن خذله الأشقّاء، وتفنّن في التنكيل به و تشريده الأعداء.

إنّ شحنة الصّبر وقوّة العزيمة هي التي تكفل له أسباب البقاء، وعلى صخرتها تتحطّم تربّصات العدوّ الصّهيوني الساعي باستمرار إلى وأد شعلة التحرّر في نفوس المجاهدين لكن هيهات أن يتأتى له ذلك. وهذا ما عبّر عنه الشّاعر بقوله:

لا ينفكّ النّحّات
عن محاولة إنطاق الحجر
لا ينفكّ الحجر عن السّكوت.[7]

لقد انتقى الشاعر ألفاظه بعناية سمحت لها بأن تعكس الفعل وردّ الفعل معا. فعلٌ من نحّات ماكر، وردّ فعل من حجر صابر. ذلك هو حال العدوّ الصّهيوني في تعامله مع الشعب الفلسطيني المؤمن بعدالة قضيته التي لا يقبل فيها المساومة. ويتوسّل إليها بالمقاومة. فعلى الرغم من تفنّن العدوّ في إيذائه سعيا منه إلى انتزاع اعترافه، و فلّ عزيمته إلاّ أنّه لم يُفلح في الحيلولة بينه وبين إيمانه الرّاسخ بعدالة قضيته. لقد كان الشّاعر بارعا كلّ البراعة في تجسيد فكرته العاكسة لسلوك العدوّ الصّهيوني السّاعي باستمرار إلى النيل منه وإخضاعه لإرادته، لكن هيهات أن يتحقّق له ذلك فسيظلّ الشّعب الفلسطيني مقاوما في صمت لا تفلّ له عزيمة. ولا تلين له شكيمة.

هذه العيّنات من قصائد الأخضر بركة تعكس لنا وبجلاء براعة الشّاعر في توصيف مشاهده، وتجسيد مراميه ضمن نسق تصويري وجمال تعبيري يستوحي من الطبيعة أفكاره. وينحت من رموزها لَبِنات أشعاره. تلك هي التجربة الفنية التي وجد فيها مقيلا فسيحا لأفكاره ومرتعا خصبا لخياله. وقد كان فيها للتّجسيد والتشخيص حضور قويّ ينمّ عن مقدرة الشّاعر في رسم مشاهده، ونحت فرائده.

إنّ قاعدة فكّر كثيرا واكتب قليلا ستظلّ أبرز علامة في شعر الهايكو الذي يعبّر فيه عن فيض من المعاني بالنّزر القليل من المباني. تلك هي مقولة خير الكلام ما قلّ ودلّ التي اصطفاها الشّاعر فيصل الأحمر عنوانا لديوانه الشّعر ي المعبّر عنه بـــ " قلّ.....فدلّ " تماشيا مع أبرز خاصية يقوم عليها شعر الهايكو الذي يتّسع فيه مجال التّلميح ويغيب فيه تماما أسلوب التّصريح بناء على أنّ " الوسيلة الأساسية للهايكو هو أنّ القصيدة تلمّح ولا تفصح، توحي ولا تعبّر. وتصوّر الأمور بشكل أضعف، أو أقلّ مما هو شائع. وتعبّر عن الكثير من خلال القليل. وتذكّر بالظلال والمعاني والأبعاد دون ذكرها."[8]

لا شكّ أنّ هذا النسق الشّعري يعكس دعوة صريحة إلى مخاطبة العقل بغية الكشف عمّا تختزنه الحياة في أبسط صوّرها، والغوص في أعماقها لاستجلاء حقائقها، و استقراء نواميسها المتوارية خلف عتبات مشاهدها مثلما تتوارى مقاصد شعر الهايكو المضغوطة في حناياه المشحونة بأنفاس الشّاعر التي تستبطنها أساليبه.

يضفي شاعر الهايكو على قصائده مسحة من الغموض الذي يستوقف المتلقي ويثير فضوله في تتبّع مساربه، والتنقيب في أعطاف تراكيبه. فالشاعر بأسلوبه هذا يقدح زناد الفكرة، ويفكّ عقال نبضها الموحي في صمت، تاركا للقارئ ملء المساحات الفارغة ظاهريا والربط بين خيوط الفكرة المتشابكة باطنيا لا ستجلاء إيحاءات الصّورة، ومرامي المشهد.

يقول الشاعر الأخضر بركة:

المرأة العاشقة
محرابها النّافذة.[9]

معلوم أنّ المرأة إذا أخلصت الودّ لأحد، فإنّها لا تبرح تتّبع أثره. لا يغيب عن وعيها الذي يجعلها مراقبة له باستمرار لا تكلّ ولا تملّ حرصا منها على تفرّدها به، غيرة عليه أو أنانية منها. إنّ تصرّفها هذا مفتوح على تأويلات عدّة لا تنفكّ عن طبيعة المرأة الغارقة في نرجسيتها.

يمثّل التأمّل في مشاهد الحياة مصدر إلهام لشعراء الهايكو الذين يجنحون إلى قياس الغائب على الشّاهد. ومن هذا التزاوج تتناسل المعاني، وتتغذّى الأفكار التي يوجّه الشّاعر صوبها سهام لفظه ولحظه لتشييد أفكاره وتطعيم أشعاره. يقول معاشو قرور في ديوانه " هايكو اللّقلق".

قشّة قشّة
يبني اللّقلق عشّه
من درب التبانة
على لقلقة الفراخ
راعٍ يسدّد مقلاعه.[10]

تقوم هذه القصيدة على مشهدين اثنين، أوّلهما: مثابرة اللقلق وحرصه على بناء عشّه لتأمين فراخه. وثانيهما: سعي الرّاعي إلى تقويض عشّ اللقلق والرغبة في اصطياده. وهنا يبرز الصّراع الدّائم بين الخير والشرّ القائم على أنانية الإنسان المتمادي في غيّه الحريص على تحقيق مصلحته ولو على حساب غيره. وقد يحلو له الرقص على آلام المستضعفين.

إنّ إثارة الغرابة و تحقيق الدّهشة التي تمليها ومضات الهايكو ستظلّ الرّكن الركين في هذا الضّرب من الشّعر الذي يتأتى لصاحبه ولوج أعماق النّفس عبر تعابير أسلوبية تجعل القارئ مردّدا: " ما أروع هذا الكتاب، استطاع أن يصل إلى منطقة إنسانية وتعبيرية متميّزة لم يلتفت إليها من قبل."[11] حيث يجنح شاعر الهايكو في نحت أفكاره إلى تجريد المجسّد وتجسيد المجرّد في قوالب فنية باعثة على الإثارة والغرابة

التي تجعل القارئ في مواجهة دائمة مع سؤال الكينونة الذي يفرضه وقع النصّ وسلطته. ففي ديوان " رجل من غبار" لعاشور فنّي يُفتح باب المفاجأة على القارئ كونه لا يقدّم معرفة أوّلية للمتلقّي إنّما " يضع الذّهن مباشرة في مستوى انتظار حالة معيّنة تتأسّس شعريا وفق دينامية فنية."[12] تغري بالقارئ وتدفعه إلى التماس مدخل ينفذ من خلاله إلى عتبة النصّ لاستكناه حقائقه، والوقوف على دقائقه. فعنوان " رجل من غبار" يعكس حالة من التشتّت والضّياع التي يحياها هذا الرّجل في منفاه الفكري والجسدي. لقد بُني العنوان على مفارقة التّضادّ التي ترشح من كلمة الرّجولة التي تقتضي الاكتمال والقوة والنّضج بخلاف كلمة الغبار التي تشي بالتلاشي والخفة وتشتت الحال. هذا التضادّ يطرح جملة من الأسئلة التي تدعو القارئ إلى تتبّع مقاصد تلك المشاهد التي توزّعت فيها أطياف الفكرة المضمرة في نفسية الشّاعر وهي فكرة مستوحاة من الواقع المعيش الذي أذكى قريحة الشّاعر ودفعه إلى أن يكون لسان حاله الذي جمع أشتات عصره في هذا الرجل الذي هو من غبار أثارته الأحداث. وما خلّفته من نقع جسّد به الشاعر قصائده التي جاء فيها:

نسيته عروسته مرّة واحدة
في المنام
فطلّق كلّ المدائن[13]

يبدو أنّ هذا الرجل الذي هو من غبار الزّمن، مشتّت البال سيّء الحال. قد عصفت به رياح الغربة بعيدا عن مدينته التي كان يعشقها لحدّ الهيام إلاّ أنّ تنكر أهلها له جعله لا يؤمن بحبّ الأوطان. إنّ قسوة بني بلده عليه صيّرته مشتّت الفكر، خامل الذّكر، مكلوم الفؤاد، لا يعرف للسّعادة طعما ولا رسما. فعلى الرّغم من سعيه الحثيث للتفاعل مع الحياة والتجاوب معها إلاّ أنّها لم تبتسم له يوما. وهو ما يُفهم من توصيف الشاعر له قائلا:

كان يلبس نظارتين ملوّنتين
ولم ير قوس قزح
كان يشرب كلّ الدّوالي
ولم تأته غيمة
أو فرح[14]

لقد حاول أن يأخذ بكلّ أسباب السّعادة كي يظفر ببغيته إلاّ أنّه لم يحظ بابتسامة من دهره. ولم يرتشف يوما شربة من غيمه. هذا ما جعله مشطور الفؤاد عليلا، يعيش على وقع الأمل الخافت العازف على أوتار الذّكرى. قلب كواه تنفّس الصُّعدا وناظرٌ مذ غاب ما رقدا. تلك هي حالة التّشتّت والضّياع التي يشي بها عنوان الديوان.

لقد انطفأت جذوة ناره، ولم يبق منها إلاّ الرّماد الذي ظلّ ينفخ فيه علّه يأنس فيه نارا تعيد له دفء الحياة لكن هيهات أن يتحقّق له ذلك. فالوقع كان أشدّ وأنكى لمّا جابهته الحقيقة المرعبة وخيبة الأمل القاتل لمّا فاجأته وجوه الأحبّة في آخر الكأس. فبموتهم تحوّل الأمل الخافت إلى جحيم ظلّ يكتوي بناره، وهو ما يوحي به ذلك التّضادّ الذي جمع فيه الشّاعر بين العرس والحداد على سبيل الإضافة، إضافة الشيء إلى نقيضه حيث يتعاظم التشظّي المعنوي الذي تتّسع فيه دوائر العذاب بعد أن تشدّ المفارقة. وتتأزّم تأجّجا في عرس الحداد هذا الذي طال أمده مثلما يفهم من قول الشّاعر:

ظلّ يمحو وجوه أحبّته
وهي تطفو على الماء
حتى محا نصف البلاد.[15]

لم تبرح ذكرى الأحبّة الذين فارقوا الحياة فكره رغم محاولته تناسيهم إلاّ أنّ المحو كان أشقّ من أن يتحقّق. وستظلّ تلك الوجوه سابحة في خياله تؤرّقه باستمرار بذلك المكان الذي غابت حمائمه، وشطّت نسائمه. ولم يعد إلاّ مجرّد طلل نُسائله عن ذكريات مشحونة بلواعج الفراق المنغّص بتعاسة الآن وقفر المكان.

إنّ أسلوب التّضادّ الذي وظّفه الشّاعر كان كفيلا بأن يجمع بين الحضور والغياب جمعا تتكثّف فيه الصّدمة ويشتدّ الوقع الذي صيّره مشطور الفؤاد يتيما لا يعرف إلى الرّاحة سبيلا مثلما يدلّ عليه قوله:

كان حين يجيء الظّلام
وتغيب المدينة في لجّة الصّمت
يفتح نافذة للحمام
فيغنّي
و في قلبه نجمة لا تنام.[16]

إنّ ثنائية التّضادّ التي يعمد الشّاعر إلى نحت أفكاره منها من شأنها أن ترفع قيمة التوتّر الحاصل في المعنى حيث يشتدّ الاحتدام، ويتضاعف الوجد ويشتدّ العذاب بين المجيء والغياب والظّلام، والنّجمة التي لا تنام. إنّها صوّر مكثّفة تجسّد معالم التّعاسة والحسرة وما شئت من ألوان العذاب الذي ظلّ ينخر عقله، ويقضّ مضجعه.

في ديوان "رجل من غبار " تتلاحق فصول المقاطع لتوصيف ذلك الرّجل الذي تبدّت ملامحه في " حلقات من التصوّر للموجودات داخل البنية الشّعرية المتشابكة، والمتصاعدة، والمتضادّة وهي تعزّز التصوّرات. وتضيء الأماكن المعتّمة لتفتح مجالات واسعة في فضاء القصيدة."[17] التي غصّت بالمتناقضات التي شكّلت فضاء

متباعد الأركان، يضيق ليتّسع. ويسقط ليرتفع. وهو مشهد يعكس احتدام الصّراع بين طرفي النّزاع الجامع بين تصاريف الدّهر وخطوبه، وطموح الإنسان الساعي إلى تخطّي عقبات نوائبه. وإلى هذا يشير بقوله:

ضاقت الأرض من حوله فاتّسع
وتساقطت السّماوات على رأسه... فارتفع.[18]

وستظلّ جدلية الحياة سائرة في فلكها المشحون بالمتناقضات التي يتجاذبها اليأس والأمل. وفي تفاعلهما يحدث العدول عن الأصل والمألوف حتّى ليضحك هذا الرّجل من شدّة الأسى وفرط الألم.

كان من كثرة النكايات يغنّي
ويحصي صبابته الضّائعة
كان يجمع أحلامه الرّائعة
ويبعثرها في الرّياح
كان يلبس وجه الصّباح
ثمّ يمضي إلى الفاجعة.[19]

ممّا هو شائع على الألسنة أنّ الشّيء إذا زاد عن حدّه انقلب إلى ضدّه، تلك حال " رجل من غبار" الذي أبرزت حالته سردية المشهد الغارق في كثافة الأحداث المتأزّمة التي فجّرت النّصّ شعرية، وأترعته إيحاء. لقد تجمّعت في حنايا القصيدة مشاهد المعاناة التي سعّرت لهيبها مرارة العيش وقسوته، عندها فتحت نافذة الخيال التي وجد فيها متنفّسا لاسترجاع أحلامه الضّائعة المحطّمة على صخرة الواقع المرير وأبوابه الموصدة لكن فور عودته إلى واقعه التعيس يجد نفسه كقابضٍ على الماء خانته فروج الأصابع. إنّها فوضى الخيال، ومسرح النّزال الذي يجرّع أنفاسه طينة الخبال.

إنّ الأفكار المجرّدة التي حوتها تجربة الشاعر لم تكن لتورق لولا سعيه الحثيث إلى إخراجها من درك التّجريد إلى أفق التّجسيد ناحتا منها صوّرا لا ينضب معينها، ولا يفتر الإحساس بنبضها في همسها ولمسها. قد علم كلّ أناس مشربهم منها. يحاور الشاعر رجله الغباري فيقول:

قال لي:
لم أكن عاشقا مثلما كنت يوم لقيت الحجر
تنثني في يدي ناحتٍ
وهو يُخرج منها نساء البشر.[20]

سيظلّ الحجر مضربا للأمثال في القسوة وقوّة التحمّل والتجلّد بالصّبر على الرّغم ممّا يبديه من مطاوعة لناحته الذي يريد أن ينحت منه العديد من الصّوّر. ويبرزه

في تماثيل بديعة كثيرا ما يتباين فيها المظهر والمخبر. فلئن كان ظاهره يسرّ النّاظرين، فإنّ باطنه سيظلّ مشدودا إلى أصله وفصله تكتنفه القسوة وتغمره الجفوة. وهو في مظهره ومخبره هذا أشبه ما يكون بالمرأة التي يُغري بالرّجل ظاهرُها فينخدع به وربّما يتيه في غرامها لكن سرعان ما يدرك الحقيقة التي تملأ قلبها قسوة يكون من آثارها الإعراض والصّدود وما شئت من أنواع السّهام التي ترمي بها قلب المتيّم مكلوم الجوى. وتزري به متلذّذة بشقائه ونكده غير عابئة بمشاعره. وذلك هو طبعها الذي يؤكّد أنّ قلبها قَد قُدَّ من حجر.

تأسيسا على ما سبق ذكره من عيّنات مفصحة عن زوايا هذا النمط الشّعري يمكن القول إنّ عالم الشّعر في ثوبه المتجدّد بتجدّد الحوادث والأزمان سيظلّ كفيلا بأن يتّسع إلى ما ضاقت عنه الأكوان ويُولَد كلّ لحظة من رحم الفكر المعبّر عنه بكلّ لسان. إنّها اللّغة التي بها " يظهر الإنسان ما هو، وبها يتأسّس ويتحقّق، إنّها ممارسة كيانية للوجود أو هي شكل الوجود."[21] هذه اللّغة هي التي تمنح الشّاعر تجسيد مضمرات فكره، وتجريد مجسّمات من حوله ليتّخذ مها لبنات فنية ينحت منها تجربته الشّعرية التي تولد من رحم المعاناة، ومخاض الفكر المتبتّل في محراب الحيرة الجاثمة على هيكل مجهول.

إنّ الاشتغال على عنصر المفارقة يمنح النّصّ تمظهرات عدّة تحكي فرادة اللّحظة الزّمنية. وتغذّي عتبات النصّ التي تخفي وراءها سيلا من الجواهر والصّدفات التي يشحن بها الفكر فتتّقد جناباته وَهْجًا يضيء ذلك البيت الذي تسكنه الرّموز والإشارات الهادفة ذات القدرة على قلب موازين الظّاهر رأسا على عقب من شأنه أن يستوقف العقل وقوف شحيح ضاع في التُّرْب خاتمه سعيا منه لفكّ شفرات القصيدة أو عنوان الدّيوان الذي كثيرا ما يصيّره كونا مفتوحا يحوي في حناياه ظلالا عدّة يَحار فيها الفكر. مثال ذلك عنوان ديوان " جرس لسماوات تحت الماء". لعثمان لوصيف الذي يثير الغرابة . ويبعث على الحيرة كونه يقدّم للمتلقّي صورة مقلوبة تماما تكون السماوات فيها أسفل الماء. ومنها ينبعث جرسه. وهي مفارقة شعرية تجمع بين التناقض والتضادّ الذي يملي على العقل تجاوز الصّورة الظّاهرة والتنقيب في البنية العميقة لمدلول الخطاب الذي لا تنجلي سحائبه إلاّ بعد تتبّع خيوط القصيدة المتشابكة في مبناها ومعناها.

إنّ شاعر الهايكو يسعى باستمرار إلى جعل الواقع شعرا معبّرا، متجاوبا مع رموز الكون ومتطلّبات النّفس التي تتطلّع إلى تحقيق معادلة مستحيلة قد لا نجد لها حياة إلاّ في نبضات القصيدة التي تتحوّل لغتها إلى " وسيلة استبطان واكتشاف. ومن

غاياتها الأولى أن تثير وتحرّك، وتهزّ الأعماق، وتفتح أبواب الاستباق."[22] نحو فيض من المعاني المجرّدة اللّطيفة المضغوطة في حنايا الخطاب.

إنّ الحفر في بنية قصيدة الهايكو الجزائرية المعاصرة يكشف عن هوية إبداعية تكسر السّائد لتمارس طقوسها الشّعرية المتجاوبة مع كلّ وافد يتوشّح جمال العربية في لغتها العليا التي تُغري بالباحث وتدفعه إلى استجلاء محاسنها، والغوص على دررها التي لا تبلى سرائرها نظما وتصويرا. [23]

الهوامش:

- قصيدة الهايكو العربية والبحث عن شرعية شعرية، عبدالقادر خليف، مجلّة اللغة العربية،ع:44/2019،21،ص:520.[1]
[2] - حجر يسقط في الماء، الأخضر بركة، دار فضاءات للنّشر والتوزيع، عمان الأردن، ط:01،2016،ص:07.
- م ن :53.[3]
- م ن : 19.[4]
- م ن : 43.[5]
- م ن :13.[6]
- م ن : 26.[7]
- قصّة أقصر شعرية من أدب العالم، عبد الوهاب المسيري، مجلّة الدّوحة،1984م،ص:520.[8]
- حجر يسقط في الماء، الأخضر بركة، ص:182.[9]
- هايكو اللقلق، معاشو قرور، دار الفضاءات للنّشر والتوزيع، عمّان، الأردن،ط:01، 2016، ص:13.[10]
- مقدّمة نقدية في قصيدة الهايكو، جمال الجزيري، دار كتابات جديدة للنّشر الالكتروني، ط:01، 2016،ص:72.[11]
- شعرية التحوّل في قصيدة ضوء على الإيقاع" لغالية خوجة، بن حلولي عبد الحفيظ، مجلة عمان، العدد:143، أيار، 2007م، ص:79.[12]
- ديوان رجل من غبار، عاشور فنّي، ص:05.[13]
- م ن : 07.[14]
- م ن : 40.[15]
- م ن : 28.[16]
- فضاء الحدث والقناع الشّعري في قصيدة الجوهري(يا أمّ عوف)،مناف علاء هاشم، الحوار المتمدّن، العدد: 2007/27،[17]
- رجل من غبار، عاشور فني، ص:47.[18]
- م ن : 27.[19]
- م ن :61.[20]
- سياسة الشّعر، أدونيس، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط:02، 1996م، ص:80.[21]
- مقدّمة للشّعر العربي، أدونيس، دار العودة، بيروت، ط:03، 1979م،ص:79.[22]

قائمة المصادر والمراجع:

01- حجر يسقط في الماء، الأخضر بركة، دار فضاءات للنّشر والتوزيع، عمان الأردن، ط: 01،2016م.
02- ديوان رجل من غبار، عاشور فنّي،دار القصبة، الجزائر.
03- سياسة الشّعر، أدونيس، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط:02، 1996م.
04- مقدّمة للشّعر العربي، أدونيس، دار العودة، بيروت، ط:03، 1979م.
05- مقدّمة نقدية في قصيدة الهايكو، جمال الجزيري، دار كتابات جديدة للنّشر الالكتروني، ط:01، 2016م.
06- هايكو اللقلق، معاشو قرور، دار الفضاءات للنّشر والتوزيع، عمّان، الأردن،ط:01، م.2016

المجلات العلمية:

01- شعرية التحوّل في قصيدة ضوء على الإيقاع" لغالية خوجة، بن حلولي عبد الحفيظ، مجلة عمان، العدد:143، أيار، 2007م.
02- فضاء الحدث والقناع الشّعري في قصيدة الجوهري(يا أمّ عوف)،مناف علاء هاشم، الحوار المتمدّن، العدد: ،2007/27م.
03- قصّة أقصر شعرية من أدب العالم، عبد الوهاب المسيري، مجلّة الدّوحة،1984م.
04- قصيدة الهايكو العربية والبحث عن شرعية شعرية، عبدالقادر خليف، مجلّة اللغة العربية،ع:2019/44م.